موقف المستشرقين من الإسلام والفكر الإسلامي القديم

نظرة موضوعية عامة

دكتور/ مهدي فضل الله*

الاستشراق مصطلح عام واسع عصيٌ علي التعريف العلمي الدقيق وفقاً لعلم المنطق وقواعده في التعريف . يرتبط موضوعه بدراسة الإسلام ديناً وحضارة . ويستحيل الحكم عليه بمجمله سلباً أو إيجاباً ، بالصحة أو الخطأ لكثرة رواده المتعددي الأهواء والغايات ، والمتنوعين بتنوع مواقف دولهم إزاء الشرق منذ بداية الحملات الصليبية علي الشرق وبدء العلاقة بينه وبين الغرب .

ولا تكمن الصعوبة فقط في الحكم سلباً أو إيجاباً علي الاستشراق برمته ، وإنما تكمن كذلك وعلي الأغلب ، في الحكم علي كل فرد من أفراده ؛ لأننا قد نجد في نتاج كل واحد منهم ، الموضوعية والهوي ، والصحة والخطأ؛ وما نوافق عليه ومالا نوافق عليه .

وقد عُقد أول مؤتمر للمستشرقين سنة ١٨٣٢ م في باريس . وتم الاتفاق في المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للمستشرقين الذي عُقد في باريس سنة ١٩٧٣ م ، علي تسمية مؤتمرهم: المؤتمر الدولي للعلوم الإنسانية في آسيا وأفريقيا الشمالية ، وذلك لما تحمله كلمة الاستشراق من صورة كريهة في أذهان العرب والمسلمين فهم يعتبرونه نوعاً من الغزو الفكري والثقافي والديني لبلادهم بموازاة الغزو العسكري والسياسي والاقتصادي ، وأداة طيعة في خدمة الدوائر السياسية والاستخبارية الغربية . ولذا فهم يرفضون أن يكونوا مادة للدراسة الدائمة للانتفاع منها في تعامل الغرب المستعمر معهم .

وحتى تجيء أحكامنا أقرب إلي الصحة ومن غير الوقوع في شرك التعميم والجزم ، يمكننا القول بأن بعض المستشرقين مثل : غيلبرت دونوجنت Gguilbert de nogent – الذي

---

* كلية الاجتهاد والعلوم الإسلامية ـــ الجامعة ـــ لبنان.

عدّ النبي محمداً ﷺ ساحراً ، استطاع عن طريق السحر والخديعة وإباحة العلاقات الجنسية الترويج لدعوته بين أناس غلب عليهم الجهل والفقر .

-وأ.كيـــنن ، وآرثومـــيلر ، وغيرهم[1] نظروا إلي الدين الإسلامي وإلي تراث المسلمين الفكري نظرة ازدراء واستعلاء . ورأوا أن تخلف العرب والمسلمين في ميدان الفكر والحضارة إنما يعود إلي الإسلام الذي يشكل بعقيدته المطلقة التي تؤمن إيماناً تاماً بالقضاء والقدر . ثقافة جامدة لا تقـــبل التغير ولا التطور . أبقت المسلمين منذ نشأتهم أمة جامدة متعصبة ، وما زالت تقيد حياتهم الفكرية الجامدة بقيود ثقيلة لم يعد من الممكن التحرر منها .

وقـــد اعتـــبر بعض المستشرقين ومن مختلف مدارس الاستشراق : الفرنسية والإنجليزية والأســـبانية والألمانية .... الخ ، مثل إجنتس جولد تسهير المجري (١٨٥٠ -١٩٢١ م) مؤلف كـــتاب : محاضرات في الإسلام ، الذي يعالج الفصل الرابع منه ، موضوع التصوف في الإسلام. وكـــيف تطـــور بفعل الفلسفة الهيلينية والديانات الهندية والفارسية ....الخ ،من زهد بسيط حتي وصـــل إلي مذهـــب وحـــدة الوجود عند متصوفي القرن السابع الهجري . وارينولد نيكلسون ، الإنكلـــيزي (١٨٦٨ - ١٩٤٥) مؤلف كتابي : في التصوف الإسلامي وتاريخه ، والصوفية في الإســـلام . وأســـس بلاثيوس الإسباني (١٨٧١ - ١٩٤٤ م) مؤلف كتاب : ابن عربي : حياته ومذهـــبه . وثيودور نولدكه الألماني (١٨٣٦-١٩٣٠ م) مؤلف كتاب : تاريخ القرآن ، والذي أرجع كلمة التصوف إلي الصوف علي ضوء التحليل الفيلولوجي لهذه الكلمة . ولوس ماسنيون ، الفرنسي (١٨٨٣ - ١٩٦٢ م) ناشر : ديوان الحلاج (١٩٣٠) وكتاب : الطواسين ... الخ -

أقـــول : اعتبروا أن التصوف الإسلامي لم يكن ثمرة خاصة بالدين الإسلامي وإنما كان ثمرة تأثر المسلمين بأصول أجنبية عن الإسلام ، كاليهودية والمسيحية والبوذية والفارسية والفلسفة الأفلاطونية المحدثة ، وبخاصة العقيدة المسيحية ، وقد استفاد المسلمون الزهد وارتداء الصوف من رهبان الأديرة المسيحية التي كانت منتشرة في مختلف أنحاء الجزيرة العربية والعالم الإسلامي

وهكذا فهم يجعلون التصوف الإسلامي وبغير وجه حق ، ملحقاً بالمسيحية خاصة وبسائر الديانات والفلسفات القديمة عامة . وقد فسر لويس ماسنيون نصوص الحسين بن منصور الحلاج (٢٤٤ - ٣٠٩ هـــ) علي هواه ، فرأي أن الحلاج كان مسيحياً بالشوق ، مسيحي الابتلاء وبذل الذات والافتداء كالمسيح ، وقُتل صلباً مثله لأنه نادي بأنه الله ، وبأنه الحق الخالق . [2]

وقـد رأي هـنري كوربان ، الفرنسي (١٩٠٣ – ١٩٧٨ م) في كتابه : في الإسلام الإيـراني ، أن ثمـة شبهاً بين تصوف السهروردي المقتول وبين الزرادشتية ، ونظر إلي التصوف والتشيع الباطني من خلال نظرياته وآرائه الخاصة . (٣)

ولم تخل دراسات الكثيرين من المستشرقين – مثل جورج سيل ، الإنكليزي (١٦٩٧ – ١٧٣٦ م) الـذي تـرجم القرآن إلي الإنكليزية وقدم له بمقدمة حفلت بالكثير من الافتراءات والمغالطات . ووليم ميور ، الإنكليزي (١٨١٩ – ١٩٠٥ م) مؤلف : القرآن : تأليفه وتعاليمه . شهادة القرآن علي الكتب اليهودية والمسيحية .سيرة الرسول (أربعة مجلدات) ... الخ . وتوماس وولكر آرنولد . الإنكليزي (١٨٦٤ –١٩٣٠ م) مؤلف كتابي : تراث الإسلام و : اليهود وما لـيس رونفـن الإنكليزي (١٩٤٢ م) مؤلف كتاب : الإسلام في العالم . وآرثر جون آربري ، الإنكلـيزي (١٩٠٥ – ١٩٦٩ م) مؤلـف : الإسلام اليوم . مقدمة لتاريخ التصوف ، وإميل درمنغهام مؤلف كتابي: حياة محمد، ومحمد والسنة الإسلامية، وصموئيل زويمر الأمريكي (١٨٦٧ – ١٩٥٢) مؤلف كتابي: الإسلام، ويسوع في إحياء الغزالي، ودونكان بلاك ماكدونالد الأمريكي (١٩٤٣) مؤلـف كـتاب: تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية في الإسلام، وديلاسي أوليري الفرنسي مؤلف كتاب: الفكر العربي ومكانه في التاريخ، الذي يرجع عقيدة الإسلام والفقه الإسـلامي وفلسـفة المسلمين وعلومهم وتصوفهم إلى المسيحية والفلسفة الهيلينية والأفلاطونية الحديثة والقانون الروماني، وارنست رينان الفرنسي (١٨٢٣– ١٨٩٢م) .

مؤلف كتاب: ابن رشد والرشديين، والذي لـه موقف معروف من الإسلام والمسلمين، فالإسـلام بحكـم نشـأته لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر، والعرب والمسلمون لا يصلحون بطبيعتهم للنظر في علوم ما وراء الطبيعة، ودور العرب في النهضة العلمية الإسلامية كان قليلاً جداً، وهي إنتاج إسلامي لشعوب غير إسلامية، وقد رد عليه كل من جمال الدين الأفغاني في جـريدة: ديـبا الفرنسية، والشيخ محمد عبده في كتاب: الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، وهـرتويج هيرشفيلد الألماني (١٨٥٤– ١٩٣٤م) مؤلف كتاب: العناصر اليهودية في القرآن، وكـارل بيكر الألماني (١٨٧٦– ١٩٦٣م) الذي اهتم بدراسة الأديان وتأثير العوامل الاقتصادية والعناصـر المسيحية واليونانية في الحضارة الإسلامية، وفلهلم رودلف الألماني مؤلف كتاب: صلة

القرآن باليهودية والمسيحية، وليوبي كايتاني الإيطالي (١٨٦٩- ١٩٢٧م) مؤلف كتاب: دراسة التاريخ الشرقي، سيرة الرسول ﷺ ، وكذلك: الحوليات (عشرة مجلدات).

أقول لم تخل هذه الدراسة من:

الحقد والتعصب والتحيز والافتراءات والمغالطات والبعد عن الموضوعية، وهي تجعل من مجمل التراث العربي الإسلامي والحضارة الإسلامية تبعاً للمسيحية والفلسفة اليونانية، فالقرآن نسخة معدلة من اليهودية والمسيحية، والمعتزلة المعطلة للصفات أخذوا فكرة نفي الصفات من المسيحية، والشيعة أخذوا فكرة تقديس الإمام من المسيحية، والفلاسفة والعلماء المسلمون استفادوا فلسفتهم وعلومهم المختلفة من الفلاسفة اليونانيين...الخ، وفي هذا الصدد يقول المستشرق فرانتز روزنتال في كتابه: مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، إن أحكام أ. كين وآرثر ميلر وغيرهما من المستشرقين المتحيزة التي تشوه الصورة العامة للحضارة الإسلامية لا قيمة علمية لها، وذلك إذا ما تعمقنا في دراسة البحث العلمي عند المسلمين ودراسة الأدب والفلسفة والتاريخ، كما يقول المستشرق الفرنسي: ألفونس إتيان دينيه (١٨٦١- ١٩٢٩م) في كتابه: محمد رسول الله: "إنه من المتعذر إن لم يكن من المستحيل ، أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ونزعتهم المختلفة، وأنه لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغاً يغشي على صورتهم الحقيقية من شدة التحريف فيها.... إن المستشرقين يقدمون إلينا صوراً خيالية هي أبعد ما تكون عن الحقيقة.." [٤] كذلك يقول جواد علي في الجزء الأول المتعلق بالسيرة النبوية من موسوعته: تاريخ العرب في الإسلام: إن معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين، أو ممن تخرج من كليات اللاهوت، وهم عندما يتطرقون إلى الموضوعات الحساسة من الإسلام يحاولون جهد إمكانهم ردها إلى أصل نصراني، وطائفة المستشرقين من اليهود يجهدون أنفسهم لرد كل ما هو إسلامي وعربي لأصل يهودي، وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع السلطان العواطف والأهواء.

والجدير بالذكر، أن أشد المستشرقين في القرنين التاسع عشر والعشرين تعصباً للمسيحية، وعداء للإسلام، وبعداً عن الموضوعية في البحث، هو الأب هنري لامنس البلجيكي (١٨٦٢- ١٩٣٧م) والذي يفتقر إلى الدراهة في أبحاثه وإلى الأمانة في نقل النصوص وفهمها والإحالة إليها، فأبحاثه المتعلقة بالسيرة النبوية كلها ومنها: مكة عشية الهجرة، مدينة الطائف العربية عشية الهجرة، غربي الجزيرة العربية قبل الهجرة، الذي يتحدث عن اليهودية والنصرانية وديانات

العرب قبل الإسلام: هل كان محمد صادقاً؟ الحكومة الثلاثية من أبي بكر وعمر وأبي عبيده، فاطمة وبـنات محمد...الخ، هذه الأبحاث تملؤها الأكاذيب والمغالطات والأحكام المتعسفة التي لا سند لها ولا دلـيل عليها، وهو على غرار المستشرق الإيطالي ليوني كايتاني (١٨٦٩- ١٩٢٦م) لا يقيم وزناً لكتب الحديث النبوي والسيرة النبوية، ويرى أنها قد وضعت جميعها من أجل غاية واحدة هي تجميد حياة النبي ليس إلا، وذلك من دون أن يقدم أدلة على صدق دعواه.

كمـا أن أبحاثـه المتعلقة بتاريخ الدولة الأموية ، ومنها: دراسات عن حكم الخليفة الأموي معاويـة الأول، خلافة يزيد الأول، دراسات عن عصر الأمويين، الإسلام عقائد ونظم...، والتي تـبالغ في تمجـيد الأمويين وحكمهم، وتبرر أبشع جرائم يزيد وغيره من الحكام الأمويين، أبحاث تملؤهـا الأحقاد على الإسلام وكراهيته في غل منقطع النظير؛ وهي تناقض ما ذهب إليه يوليوس فلهاوزن في كتابه: الدولة العربية وسقوطها، كما أنها أثارت نفور المستشرق الفرنسي بيير كازانوفا الـذي يقول في كتابه: محمد وانتهاء العالم في عقيدة الإسلام: "يحق لنا أن نعجب أشد العجب من كاهن كاثوليكي مثل الأب لامنس، يتطوع للدفاع عن أولئك الشاكين الطغاة، ساخراً من سذاجة علي... وإنها لغريبة حقاً هذه المباحث التي يبدي فيها المؤلف تشيعه للأمويين ضد بني هاشم، والتي تتوالى فيها المرافعات الدفاعية، والاتهامات الإدعائية، آخذاً بعضها برقاب بعض".(٥)

ومـن جملة المفتريات والأكاذيب الواضحة التي ساقها لامنس في دائرة المعارف الإسلامية (الجزء الأول) مـا جـاء تحت مادة الحسن بن علي بن أبي طالب : " إن الصفات الجوهرية التي كان يتصـف بهـا الحسن هي الميل إلي الشهوات والافتقار إلي النشاط والذكاء . ولم يكن الحسن علي وفاق مع أبيه واخوته . وقد أنفق خير سنين شبابه في الزواج والطلاق فأحصي له حوالي المائة زيجة عـداً ، وألصـقت به هذه الأخلاق السائبة التي المطلاق ... وأثبت الحسن كذلك أنه مبذر كثير السـرف ، فقد اختص كلاً من زوجاته بمسكن ذي خدم وحشم ، وهكذا ترى كيف كان يعثر المـال أيام خلافته علي التي اشتد عليها الفقر . وشهد يوم صفين دون أن تكون له فيها مشاركة إيجابـية ... (وعندما ترك العراق) مشيعاً بسخط الناس عليه ليقبع في المدينة عاد إلي حياة اللهو واستسلم للذّات .. ولم يكن الحسن علي وفاق مع الحسين وإن اجتمعا علي مناهضة ابن الحنفية وغـيره مـن أبناء علي . وتوفي الحسن في المدينة بذات الرئة . ولعل إفراطه في الملذّات هو الذي عجّل بمنيته . وقد بذلت محاولة لإلقاء تبعة موته علي رأس معاوية ، وكان الغرض من هذا الاتهام

وصـــم الأمويين بهذا العـــار ، وتبرير لقب الشهيد أو سيد الشهداء " الذي خلع علي ابن فاطمة هذا ... "

ولعـــل المستشـــرق الأمريكي اليهودي المعاصر ، برنارد لويس (١٩١٦م) الذي يعتبر العقـــل الموجه لجماعة المحافظين الجدد في البيت الأبيض الأمريكي والذي يتبنى بقوة فكرة صراع الحضـــارات منذ العام ١٩٥٧م وقبل طرحها من قبل صموئيل هنتغتون في العام ١٩٩٣م، أكثر المستشرقين حالياً ، عداء لكل ما هو عربي وإسلامي ففي مؤلفاته : الإسلام عبر التاريخ(١٩٧٥م) الـــيهود في الإســـلام (١٩٨٤ م) ، عـــودة الإسلام (١٩٨٥ م) ، الساميون والمعادون للسامية (١٩٨٦م)، الإسلام والغرب ، اللغة السياسية للإسلام (١٩٨٨م)، الشرق الأوسط (١٩٩٥م)، أيـــن الخلـــل ؟ الـــذي صدر مباشرة بعد هجمات الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١ م ، أزمة الإســـلام (٢٠٠٣ م) وكذلـــك في مقالات، ومنها : السياسة والحرب ، التي نشرت في كتاب تـــراث الإسلام – القسم الأول – (الفصل الرابع : ٢٢٩ – ٣٠٠) لمصنفه : جوزف شاخت وس أ. بوزوروث ، و : جذور الغيظ الإسلامي التي نشرها في مجلة الأتلنتك مانثلي ، الشهرية سنة ١٩٩٠ م ، – يـــري أن الصراع الإسلامي المسيحي هو صراع عقائدي وحضاري حقيقي ، بدأ منذ أربعة عشر قرناً وما زال قائماً . فمؤسس الإسلام " جعل من نفسه قسطنطين " . وبدأ الصدام بـــين الإسلام والمسيحية في عهده استناداً إلي الآيتين التاسعة والعشرين والثلاثين من سورة التوبة اللتين تفرضان علي المسلمين مقاتلة النصارى واليهود حتي يقبلوا بالإسلام ديناً لهم أو يقبلوا بدفع الجزية وهم صاغرون .

﴿ قـــاتلوا الذيـــن لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتي يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . وقالت اليهود عُزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنّي يؤفكون ﴾ صدق الله العظيم

وعنده أن الفقهاء المسامين نظروا باكراً " لدار الإسلام " و" دار الحرب " لتشريع الحرب علي كل من هو غير مسلم ، وأن الحرب لا يمكن أن تنتهي بين المسلمين وغيرهم إلا بدخول جميع الناس في الإسلام أو بالخضوع له ودفع الجزية .

كمـــا يري أن سبب كراهية العرب والمسلمين الشديدة اليوم للحضارة الغربية والثقافة الغربـــية الممـــثلة بأمريكا ، وحقدهم عليها ، هو قوة أمريكا وغناها وحضارتها ، فبعدما كانوا هم سادة العالم والأغنى والأقوى والأعظم حضارة لقرون طويلة علي وجه الأرض ، أصبحوا مهزومين مقهوريـــن يشعرون بالذل والمهانة إزاء سيطرة وتفوق أمريكا وسائر العالم المسيحي الحر عليهم ، إنهـــم يحسدون أمريكا علي حضارتها وقوتها ، ويكرهون قيمها ونمط حياتها المختلف عن قيم ونمط حـــياتهم ، ويخافونهـــا علي هويتهم واستمرار وجودهم ، انطلاقاً من عدائهم العقائدي والفكري والـــثقافي – الـــذي يمثله أصدق تمثيل أسامه بن لادن – لمكونات الثقافة والحضارة الغربية ذات الأسس اليهودية – المسيحية – وبالتالي فإنه يستحيل الدخول معهم في حوار ، والوصول معهم إلي اتفـــاق ، وهم لن يخرجوا من ظلمات العصور الوسطي " إلا إذا اقتدوا بالمثال التركي الأتاتركي ، وأقدمـــوا علي فصل الدين عن الدولة في حياتهم ، وعلمنوا الدولة في جميع المجالات ، وتخلوا عن مبدأ العداء للغرب المتأصل في عقيدتهم وثقافتهم ، وتبنوا قيم الحداثة ، واحترام حقوق الإنسان : ذكراً أو أنثي ، واحترام القانون والتداول السلمي للسلطة .

والذي لا شك فيه ، أن عداء برنارد لويس السافر والشديد للعرب والمسلمين، ولا سيما بعـــد أحـــداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ م ، والذي تمثل بنشره مقالة بعنوان : " يجب أن نكـــون واضـــحين " في جريدة الواشنطن بوست في السادس عشر من أيلول ٢٠٠١، ودعا فيها الإدارة الأمريكية بصراحة إلي غزو العراق والإطاحة بنظام صدام حسين وبغيره من الأنظمة المعادية لأمـــريكا ، هـــو أحـــد أهـــم أسباب الحرب علي العراق واحتلاله ، بعدما أصبحت فلسفته أو أيديولوجيـــته هي سياسة الولايات المتحدة الأمريكية المعتمدة حالياً إزاء العالم العربي والإسلامي ، وفي هذا الصدد يقول المستشرق الأمريكي ريتشارد بوليت أستاذ مادة التاريخ في جامعة كولومبيا في كـــتابه :" التقارب الحضاري الإسلامي المسيحي" عن برنارد لويس :"هذا رجل لا يحب أولئك الذين يدعي أنهم (أي العرب) ضمن مجال اختصاصه ، فهو لا يحترمهم ، ويعتبرهم جيدين وذوي قيمة فقط حينما يبدون قابلية لتتبع الغرب .... " .

وبـــناءً علي ما تقدم ، لا يسعنا إلا أن نقف موقف المؤيد للمنتقدين للاستشراق ، الذين خـــبروه بحـــثاً وتنقيباً وتحليلاً ، ومنهم: حسن حنفي ، علي سامي النشار ، عبد الرحمن بدوي ، مصطفي السباعي ، محمد البهي ، جواد علي ،إدوارد سعيد ، بخاصة الذي قامت بينه وبين برنارد

لويس خصومة فكرية وثقافية وسياسية عنيفة وسجال فكري حاد ، منذ أكثر من عقدين من الزمن، علي صفحات مجلة " نيويورك ريفيو أوف بوكس" حول الاستشراق الأنثربولوجي المسيس والمتعالي ، والقضية الفلسطينية .

ونحن نري أن الاستشراق الذي وُلد ونشأ مع بدايات الحملات الصليبية علي بلادنا العربية واستمر ناشطاً مع احتلال الدول الغربية لبلادنا تلك ، إنما وُلد ونشأ وترعرع في أحضان المستعمرين ليكون عوناً لهم علي استعمارنا من طريق نشر المعلومات المشوهه والمغلوطة عن ديننا وفكرنا وأخلاقنا وعاداتنا وحضاراتنا ، في الأوساط الغربية وفي أوساطنا أيضاً .

ولكن هل رأينا هذا ، يعني إدانة مطلقة وبصورة عامة من جانبنا للاستشراق بمختلف مدارسه ، لأن بعضاً أو كثيراً من المستشرقين كانوا من اليهود المعادين لديننا وأمتنا ومن آباء الكنائس المتعصبين لنصرانيتهم الذين لم يخفوا تحاملهم علي ديننا ولا إجحافهم بتراثنا الفكري والحضاري وتاريخنا السياسي والاجتماعي ؟ وهلي يجوز لنا ذلك من الوجهة الأكاديمية والمنطقية ؟ وهل تراثنا الفكري والديني يرتفع كله عن النقد ولا يقبل التأويل والاجتهاد واختلاف الآراء ؟ .

إننا نرى ومن دون أن نريد شرف الدفاع عن الاستشراق بوجه خصومه أو مناوئية أو منتقديه ، إن ثمة مستشرقين عاديين عرفهم القرن التاسع عشر والقرن الماضي ، أكبوا سنوات عديدة وبشغف علي تعلم لغتنا العربية والتنقيب في تراثنا ودراسته من خلال المخطوطات والنصوص القديمة ، اتسمت أبحاثهم في الإسلام وعلومه وتراثه بكثير من الشمولية والموضوعية والإنصاف ، لا نملك إلا الاعتراف لأصحابها بالفضل والإعجاب ، علي الرغم مما قد يكون فيها أحياناً من إهانات أو أخطاء أو مغالطات مقصودة أو غير مقصودة ، وقدموا لنا مادة غنية عن تراثنا في مختلف المجالات : الأدبية والتاريخية والفلسفية والعلمية والفقهية والكلامية ....الخ ، يبقي لنا الحق في تقويمها سلباً أو إيجاباً ، ولا أحد يمنعنا من ذلك إلا التقصير من جانبنا أو الجهل بتراثنا .

وهكذا، ومن خلال نظرنا إلي الاستشراق نظرة حيادية بعيدة عن التقريظ وعن العدائية ، لأن فعل الاستشراق كأي فعل ثقافي – سياسي قد يحمل الصحة أو الخطأ ، والنفع أو الضرر ، والحسن أو القبح ، فإننا نعتبر أن الكثيرين من المستشرقين كلٌ في حقله وزمنه ، قدموا لنا مادة مهمة مفيدة عن تراثنا الديني والفلسفي والأدبي والعلمي والتاريخي واللغوي ، كنا نحتاجها حتي نبني عليها ونضيف إليها أو نقومها ، وما زلنا نُعول عليها إلي حد بعيد في كل ما يمت بصلة إلي هذا

الـتراث ، مـن فلسفة وعلم كلام وتصوف وفقه وعلوم مختلفة ، ولا نعتقد أننا سنستغني عنها مستقبلاً .

ومن هؤلاء المستشرقين الذين لا يمكن تجاهل بحوثهم ودراساتهم ولو كان فيها القليل أو الكـثير مما لا نقبله أو نستسيغه ، نذكر : إجينتس جولد تسهير فنحن وإن كنا لا نقبل ما جاء في الفصل الرابع من كتابه : محاضرات في الإسلام ، عن التصوف الإسلامي الذي يرجعه إلى أصول مسيحية وهندية ويونانية .... الخ استناداً إلي المنهج الفيلولوجي التحليلي الذي يعتمده في دراسة التصـوف ، ولا نقبل أيضاً بعض آرائه وأحكامه العامة المتعسفة التي جاءت في الفصل الثاني من كـتابه : دراسات إسلامية المعروف باسم : العقيدة والشريعة في الإسلام ، والتي يسوقها من غير أدلة مقنعة ، استناداً إلي منهجه الاستنباطي القائم علي الحدث في البحث ، من قبيل جهل المسلمين الأوائـل بكيفية أداء الصلاة مواقيتها وجهلهم بعدم جواز السلام علي الله ، وجهل المسلمين في الشـام بـأن عدد الصلوات خمس ، وجهل البصريين (أهل البصرة) بزكاة الفطر ، وأن الحكم الأمـوي كـان بصـورة عامة حكماً دنيوياً لا يعبأ بالدين ، وكان تعاطي الخمر ممكناً حتي داخل المسجد ، وكانت دمشق موطن الأنس والمتعة وبيت اللذائذ ومركز الموسيقي ، وأن الحكم العباسي كـان حكمـاً دينياً وإن لم يسلم بعض الخلفاء من حياة اللهو والمجون ، وأن الفقه الإسلامي تأثر بالقانون الروماني من خلال مدارس جوستنيان القانونية التي كانت موجودة في بلاد الشام ، ومنها بـيروت علي سبيل المثال ، وأن الإمام الشافعي والإمام الأوزاعي اللذين وُلدا في بلاد الشام كان عـلي معـرفة بكثير من القوانين الرومانية وتأثرا بها ، وأن كثيراً من الأحاديث النبوية وُضعت في عهود لا حقه لوفاة الرسول ﷺ من أجل التهذيب الأخلاقي ، ومن أجل الأهواء العقائدية والغايات السياسـية ، وأن أهل الرأي كانوا أكثر عناية ودقة بنقد الحديث من أهل الحديث ؛ وكذلك لا نقبل قوله في " دائرة المعارف الإسلامية " : إن محمداً ﷺ قد أخذ شعيرة الصوم من اليهودية .... الخ ، إلا أننا في المقابل نري أن الفصول المتعلقة بـ : محمد والإسلام ، تطور الشيعة ، علم الكلام وفرقه المختلفة القديمة والحديثة : المعتزلة ، الأشاعرة ، الماتريدية ، الشيعة ، الخوارج ، الإسماعيلية ، الوهابـية ، البهائـية ، البابية ..... الخ ، من كتابه : محاضرات في الإسلام ؛ وكذلك الفصول الأخـيري مـن كتابه : دراسات إسلامية التي تكلمت علي هزيمة الروح الوثنية الجاهلية القومية الأرستقراطية أمام الروح الدينية الإسلامية الديمقراطية القائمة علي مبدأ المساواة بين الناس والأمم

عـــلي اخـــتلافهم وعـــلي نشأة الحديث النبوي وتطوره ونقده ، والذي اهتم فيه جولدت سيهر بالكشف عن ميول وأهواء وأغراض أصحاب الحديث أكثر من اهتمامه بمعرفة الحديث نفسه من حيث المرتبة والوثاقة أو الصحة .... لا يمكن إلا أن تكون مفيدة ونافعة .

ولعـــل كتاب جولدت سيهر : مذاهب التفسير الإسلامي من أهم الكتب في موضوعه ، فهو يكشف عن اتجاهات الفرق الإسلامية المختلفة في تفسير القرآن ، كتفسير ابن عباس الإمامي الـــذي يقتصـــر علي الشرح الحرفي لمعاني الألفاظ وإيراد الشواهد التاريخية المصاحبة أحياناً لتزيل الآيـــات ، وتفسير الكشاف للزمخشري الذي يعبر عن موقف أهل الاعتزال الكلامي العقلي من تفســـير القـــرآن ، وتفسير الصوفية الباطني (تفسير ابن عربي) الذي يختلف اختلافاً شديداً عن التفاسير الأخري ، وأخيراً التفسير العصري للقرآن الذي يمثله الشيخ محمد عبده وغيره .

ومـــن كتب جولدت سيهر المهمة أيضاً كتابه : الظاهرية مذهبهم وتاريخهم ، الذي نُشر ســـنة ١٨٨٤ م ، والذي لم يتعرض فيه فقط لدراسة المذهب الظاهري ، بل تناول بالتفصيل الفقه وأصوله ، وأصول المذاهب الفقهية المختلفة وما بينها من أوجه الشبه والاختلاف .

والشـــيء اللافـــت للـــنظر في مجمل مؤلفات جولدت سيهر أنه ينظر للتاريخ السياسي للإســـلام نظـــرة حركية ، دائمة التفاعل مع الواقع سلباً وإيجاباً ، وبعيدة عن الرتابة والتحجر في شكل واحد من أشكال الدين أو السياسة .

وكذلـــك نذكر مونتغمري وات (١٩٠٩ م) مؤلف كتب : محمد في المدينة ، محمد نبي ورجل دولة ، الفلسفة الإسلامية والعقيدة ، الفكر السياسي الإسلامي " المفاهيم الأساسية ، تأثير الإســـلام في أوربـــا القرون الوسطي ، موجز تاريخ الإسلام ، الأصولية الإسلامية والتحديث ، العلاقات الإسلامية النصرانية ...الخ ، فنحن وإن كنا لا نوافق علي سبيل المثال علي بعض ما جاء في كتاب : الفكر السياسي الإسلامي " المفاهيم الأساسية " من أحكام ومنها : أن الدولة الإسلامية منذ نشأتها وحتى بداية العهد العباسي كانت ترتكز علي المفاهيم السياسية السابقة للإسلام ، وأنها في جوهرها كانت اتحاداً من القبائل ، وأن " الغنيمة "كانت المطمع الأساسي المحرك للسواد الأعظم مـــن المســـلمين المشـــاركين في حملات التوسع العربية بعد وفاة النبي ﷺ ، وأن التفكير السياسي الإســـلامي يخلـــوا تماماً من ذكر فعلي لمفهوم الحرية وسائر الحقوق الإنسانية .... الخ ، إلا أننا في المقـــابل لا يمكـــنا التغافل عن المادة الثمينة التي تقدمها لنا مجمل كتبه ، والتي تعتبر الإسلام ديناً

دينامياً ودولة ، ومؤسساته السياسية لا تنفصل عن معتقداته الدينية ، وأنه قد أثر تأثيراً شديداً في أوربا زمن القرون الوسطي وهو اليوم إحدى ست قوي أساسية وهامة في العالم لا يمكن تجاهلها .

كذلك نذكر إسين بلاثيوس (١٨٧١-١٩٤٤ م) الذي أرجع التصوف الإسلامي من غير أدلة مقنعة إلي المسيحية عن طريق رهبان الأديرة المنتشرة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي وغيرها من الديانات والفلسفات ؛ وفي الوقت نفسه رأي أن المسلمين تركوا ميراثاً صوفياً ضخماً أثر كثيراً في التصوف المسيحي ولا سيما في متصوفي الأندلس عامة كما في الكوميديا الإلهية لدانتي.

ومؤلفات الغزالي : العقائد والأخلاق والزهد ، مذهب الغزالي في التصوف ، الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي ، مع الشرح والتعليقات المستفيضة عليه ، تأثيرات الإسلام ، الذي أبان فيه تأثر أوربا والمسيحية بالإسلام ..... الخ ، من الكتب الهامة في موضوعاتها .

ويمكن أن نذكر أيضاً :

١- رينولد نيكلسون (١٨٦٨-١٩٤٥ م) الذي حاول أن يثبت تأثر رجال التصوف الأوائل بمذاهب أجنبية عن الإسلام ، ثم تراجع عن آرائه ورأي أن التصوف الإسلامي نشأ في رحاب القرآن والسنة ، وكان تطوره تطوراً إسلامياً خالصاً ومؤلفاته : تاريخ العرب الأدبي ، دراسات في التصوف الإسلامي ، أعلام الصوفية ، فكرة الشخصية في التصوف ، ديوان مثنوي للشاعر جلال الدين الرومي ، اللمع في التصوف للطوسي .....الخ مفيدة لكل باحث .

٢- لويس ماسينيون (١٨٨٣-١٩٦٢ م) الذي اشتهر بدراساته في التصوف الإسلامي العامة وفي الحلاج خاصة ، الذي بذل جهداً كبيراً في تحقيق ديوانه : شرحاً وتعليلاً وتأويلاً ، وهو علي الرغم من أنه اعتبر الحلاج : مسيح الإسلام ولو في هواه والسير علي خطاه ، فإنه رأى أن التصوف الإسلامي قد نشأ نشأة إسلامية خالصة ، مستمداً أصوله من القرآن والسنة وحياة الرسول ﷺ والصحابة ، واستمر كذلك - علي الأقل - في القرون الثلاث الأولي علي نشأته ، وبحوثه في التصوف وبخاصة رسالتيه للدكتوراه : ١- عذاب الحلاج ، شهيد التصوف في الإسلام ، التي تقع في أكثر من ألف صفحة ، ٢- بحث في نشأة المصطلح الفني في التصوف الإسلامي التي تقع في ثلاثمائة وخمسين صفحة ؛ وكذلك أبحاثه الكثيرة عن سلمان الفارسي والكندي وابن سينا وابن سبعين

والقـــرامطة والنصيرية .....الخ ، التي نشرها في دائرة المعارف الإسلامية ؛ وأيضاً بحثه : تـــاريخ العلم (١٩٥٧ م) الذي يتناول في فصل منه وبإعجاب التراث العلمي العربي ، تعتـــبر كنزاً من المعلومات الثمينة والمهمة في تاريخ الإسلام الديني والروحي والعقلي في الإسلام ، لا يُستغني عنها من قبل كل باحث .. ومهما كان رأيه فيها .

٣- ديفـــيد صموئيل مرجليوس (١٨٥٨-١٩٤٠م) الذي علي الرغم من أن جميع مؤلفاته المتعلقة بالإسلام : محمد ونشأة الإسلام ، الإسلام ، السيرة النبوية ، العلاقات بين العرب واليهود .... الخ ، قد اتسمت بالابتعاد عن الموضوعية العلمية ، وبروح التعصب لأصله الـــيهودي ولديانـــته البروتستانتية والعداء للإسلام ، مما جعله محل سخط شديد من قبل المســـلمين ، ونفور من آرائه من قبل المستشرقين [٦] ، فإن اهتماماته الأدبية والتاريخية – وعـــلي الرغم مما أُخذ عليه في شكه في الشعر الجاهلي – ومنها : تحقيق " معجم الأدباء لـــياقوت الحموي " ووضع فهارس له ، ورسائل أبي العلاء المعري ، وحماسة البحتري لا يمكن إلا الإشادة بها .

٤- آرندجـــان فنســـك (١٨٨٣-١٩٣٩ م) الذي كان عدواً للإسلام ورسوله ، ولشدة عـــداءه للإســـلام ادعي مثل إجنتس جولدت سيهر أن محمداً استقي القرآن والشعائر الدينـــية التي أتي بها ومنها : شعيرة الصلاة وشعيرة الصيام من خلاصة الكتب اليهودية والنصرانية والجاهلية ، كما ادعي أن محمداً اعتمد في بداية دعوته علي اليهود في مكة ، وعـــندما انقلـــبوا عليه هداه ذكاؤه إلي أبي العرب : إبراهيم فقطع صلته بيهود عصره ووصـــلها بـــيهودية إبراهيم ، ويظهر تعصبه جلياً في مؤلفاته : العقيدة الإسلامية نشأتها وتطورهـــا التاريخي ، محمد والنبوة ، محمد واليهود ، موقف الرسول من يهود المدينة ، الإســـرائيليات في الإسلام ، كما يظهر تعصبه أيضاً في أبحاثه الكثيرة : الأثر اليهودي في أصـــل الشعائر الإسلامية ، وكذلك في " المواد " التي كتبها في دائرة المعارف الإسلامية والـــذي ضمنها آرائه الخاطئة [٧] ، لكنه ومهما كان رأينا فيه فإنه كان من أوائل الذين خدموا الدراسات الإسلامية خدمة جليلة كمؤلفه الموسوعي : " المعجم المفهرس لألفاظ الحديـــث الـــنبوي " الـــذي وضعه بحسب الألفاظ والترتيب الهجائي للأحاديث النبوية الواردة في كتب الصحاح الستة وفي مسلك احمد ابن حنبل وسنن الدرامي وموطأ مالك،

عظيم النفع لجميع الذين يشتغلون في العلوم الإسلامية ، ولا أحد من الباحثين يمكنه الاستغناء عنه .

بيد أنه وبالرغم من حكمنا القاسي علي مجمل الاستشراق ، فإننا نري أن ثمة مستشرقين كبار شهدهم القرن التاسع عشر والقرن العشرون ، كتبوا أبحاثاً موضوعية نافعة عن العرب والإسلام ، وأغنوا بها المكتبة العربية والإسلامية ، ومن هؤلاء المستشرقين نذكر :

١- جوستاف فلوجل الألماني (١٨٠٣-١٨٧٠ م) الذي كان أول من أصدر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم سنة ١٨٤٢ ، وكل الذين قاموا من بعده بوضع فهارس للقرآن سواء كانوا من العرب أو المسلمين عيال عليه ، وبذلك فإن عمله يعد خدمة جليلة لكل الباحثين وعامة الناس علي حد سواء ، كما أنه كان أول من نشر كتاب : كشف الظنون لحاجي خليفة التركي ، مع ملاحق وفهارس في سبعة مجلدات ، قضي فيه ثلاثة عشر عاماً، وأورد فيه عناوين خمسة عشر ألف كتاب عربي وفارسي وتركي ، والمجلد السابع منه كناية عن فهرس شامل لأسماء المؤلفين وعناوين الكتب المذكورة فيه ، وهو من أهم الكتب الموسوعية في العلوم الإسلامية وأكثرها فائدة للباحثين .

ومن مؤلفات فلوجل المهمة أيضاً : " المدارس النحوية عند العرب " الذي يتحدث عن مدرستي البصرة والكوفة في النحو ، وسائر المدارس النحوية ، مع ثبت بأسماء النحويين في كل مدرسة وترجمة لهم ، وكذلك : تاريخ العرب (ثلاث مجلدات) ، والكندي الملقب بفيلسوف العرب ، وحياة السيوطي ومؤلفاته ، ومصطلحات الصوفية لابن عربي ، وطبقات الحنفية ، والتعريفات للسيد الشريف الجرجاني .... الخ ، وقد قام بتحقيق كتاب الفهرست لابن النديم ، ولكن موته حال دون نشره ، فقام بهذه المهمة من بعده المستشرق أوغست ميلر (١٨٤٧-١٨٩٢م) الذي نشر النص كما حققه فلوجل .

٢-رينهارت دوزي الهولندي (١٨٢٠-١٨٨٣ م) الذي اهتم بالتاريخ الأدبي والاجتماعي والسياسي للمسلمين في أسبانيا منذ سنة ٧١١ م إلي سنة ١١١٠ م أي من بداية فتح المسلمين للأندلس حتي قيام دولة المرابطين ، فألف كتابه المشهور : تاريخ المسلمين في أسبانيا (أربع مجلدات) الذي يعد حتى اليوم من أجل الموسوعات التاريخية عن الإسلام في أسبانيا ، كما ألف كتاب أبحث في التاريخ السياسي والأدبي لأسبانيا خلال العصر

الوسيط (مجلدان) ، وهو كتاب مهم في تاريخ المسلمين في الأندلس ، يصحح كثيراً من الأخطـــاء الشـــائعة في أذهان المستشرقين الأوربيين عن تاريخ المسلمين في أوربا ، ومن مؤلفاتـــه المهمة أيضاً : أخبار بني عباد عند الكتاب العرب (ثلاثة أجزاء) وهو ما زال أهـــم بحـــث إلى الآن عـــن بني عباد الذين حكموا إشبيلية ، ومعجم الألفاظ الأسبانية والبرتغالية المأخوذة من اللغة العربية و : معجم مفصل بأسماء الملابس عند العرب ، وقام بنشر كتاب : البلدان لابن واضح اليعقوبي ، وكتاب التنبيه في فقه الشافعية لأبي اسحق الشيرازي .

٣-يولـــيوس فلهاوزن الألماني (١٨٤٤ -١٩١٨ م) الذي كان عالماً في التاريخ الإسلامي والفـــرق الإســـلامية ، ومن أعماله المفيدة التي لا يمكن إغفالها : تحقيق تاريخ الطبري ، الإمـــبراطورية العربـــية وسقوطها ، الأحزاب المعارضة في الإسلام ، الخوارج والشيعة ، تنظيم محمد للجماعة في المدينة ، محمد والسفارات التي وُجهت إليه .

٤- ت . ج . دى بور الهولندي (١٨٦٦ - ١٩٤٢ م) الذي كان عالماً في الإسلام وتاريخ الفلسفة الإسلامية ومؤلفه : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، الذي تناول علوم اللغة والفقه وأصـــوله والحديث وعلم الكلام وفرقه والتصوف والفلسفة العربية وأعلامها ؛ وكذلك مؤلفه : الغزالي وابن رشد ، الذي أصدره سنة (١٨٩٤ م) من المؤلفات الهامة التي لا يمكن إغفالها أو تجاهلها .

٥-كـــارلو الفونســـو نلينو الإيطالي (١٨٧٢ - ١٩٣٨ م) الذي اهتم بتاريخ الفلك عند المسلمين وألف فيه كتابه الثمين : علم الفلك ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، كما اهتم بتاريخ الأدب العربي والشريعة الإسلامية والفلسفة الإسلامية ، وأثبت بالأدلة عـــلى أن التشريعات المسيحية الشرقية استمدت وجودها من الشريعة الإسلامية وليس العكس ، وقد درّس تاريخ علم الفلك في الجامعة المصرية في سنة ١٩٠٩ - ١٩١٠ م، كمـــا درّس تاريخ الأدب العربي لمدة سنتين بعد ذلك ، وألف فيه كتابه : الأدب العربي منذ بداياته حتى عصر الحكم الأموي ، وكان لمنهجه في تدريس تاريخ الأدب العربي أكبر الأثر في نشأة كبار الأدباء في مصر ، ولا سيما عميد الأدب العربي الراحل طه حسين ، الـــذي أشـــاد بعـــلمه وفضله في كتابه : في الأدب الجاهلي ، ومقالاته الخاصة بالمعتزلة

والقدريـــة وفلســـفة ابـــن سينا وابن الفارض .... الخ التي نشرها في مجلة " الدراسات الشـــرقية " التي كان المشرف عليها في أثناء شغله أستاذ تاريخ الإسلام في جامعة روما ، مقالات قيمة تدلل علي سعة اطلاعه علي الفلسفة الإسلامية وعمقه ودقته في البحث .

٦-كارل بروكلمان الألماني (١٨٦٨ – ١٩٥٦ م) مؤلف موسوعة : تاريخ الأدب العربي (سبعة أجزاء) التي لا يستغني عنها باحث في العلوم الإسلامية : حديث ، فقه ، تفسير ، علم كلام ، تصوف ؛ ولا باحث في اللغة العربية وآدابها ، لشموليتها ودقتها ، ولا سيما في الفهـــارس التي اشتملت علي المؤلفات التي كتبها من ترجم لهم بروكلمان ، وما كان عليها من تلاخيص ومن ردود ومن شروح ومن ترجمات ، وكذلك مؤلف كتاب : تاريخ الشـــعوب والـــدول الإسلامية ، وهو كناية عن صورة مفصلة وشاملة لتاريخ الشعوب والدول الإسلامية منذ بداية الإسلام وحتى سنة ١٩٣٩ م ، وعلي الرغم مما جاء فيه من افـــتراءات ومغالطـــات فإنـــه يبقي مرجعاً مهماً لا يمكن الاستغناء عنه ، ومن مؤلفات بروكلمان كتاب : العلاقة بين كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير وكتاب أخبار الرسل والملـــوك للطبري ، وهو كتاب هام جداً و عيون الأخبار لابن قتيبة ويمكن القول : أن أبحـــاث بروكـــلمان عموماً تتصف بالموضوعية والعمق والشمول ، مما جعله مرجعاً في التاريخ الاسلامي والأدب العربي قل من لا يرجع إليه أو يتوكأ عليه من الباحثين .

٧- زيغـــريد هونكة (مستشرقة ألمانية معاصرة) وهي معجبة جداً بالأدب العربي والحضارة العربـــية والأخلاق العربية والتسامح العربي ، إلي حد اتهامها بالتعصب الشديد للعرب والتحـــيز لهم ، ومؤلفاتها وأبحاثها تشيد كلها بفضل العرب علي الحضارة الإنسانية عامة والغربية خاصة، ومن مؤلفاتها : شمس العرب تسطع علي الغرب – أثر الحضارة العربية في أوربا – ويقع في خمسمائة وثمانية وثمانين صفحة ، وهو كتاب عظيم الأهمية يتحدث عن المعجـــزة التي حققها العرب في ميدان الثقافة والعلوم المختلفة ، انطلاقاً من مبادئ الدين الإسلامي التي تعتبر طلب العلم عبادة ، وتشجع علي السعي إليه أينما كان ، كما يبين مدي تأثر الغربيين بالحضارة العربية والعلوم العربية في مختلف الميادين .

٨- ليفي بروفنسال الفرنسي (١٨٩٤ –١٩٥١ م) الذي اشتغل كثيراً بتحقيق المخطوطات العربـــية ونشرها ومنها : رسالة في الحسبة لأبي عبد الله السقطي المالقي ، ومن مؤلفاته

الهامة : الخلافة الأموية في قرطبة من عام ٩٢١ إلي عام ١٠٣١ هـ ، أسبانيا المسلمة في القـرن العاشـر الهجري : النظم والحياة الاجتماعية ، الإسلام في الغرب : دراسات في تاريخ العصر الوسيط ، الحضارة العربية في أسبانيا .... الخ .

٩-ريجـيس بلاشـير الفرنسي (١٩٠٠ - ١٩٧٣ م) الذي درس أبو الطيب المتنبي تحت عنوان : أبو الطيب المتنبي الشاعر العربي الإسلامي ، وما زالت دراسته أفضل الدراسات عـن المتنبي حتى اليوم ، وترجم القرآن إلي اللغة الفرنسية ، وقدم له مقدمة هامة جداً ، وألف كتاب تاريخ الأدب العربي (ثلاثة أجزاء) وما زال غلي الآن من أهم ما كُتب في موضوعه .

١٠- هنري كوربان الفرنسي (١٩٠٣ - ١٩٧٨ م) الذي بالرغم من نظرته إلي تصوف السهرودي ، وآرائه في المذهب الشيعي الإثني عشر الذي يعتبره من المذاهب الباطنية ، ولا نوافقه عليه ، فإنه يعتبر أفضل من درس الإسلام في إيران ، والتصوف الإيراني ، وقد جاءت دراسته التي تتدلل علي معرفة واسعة في الفكر العرفاني في إيران والعالم الإسلامي، في أربعة مجلدات : الأول تناول مذهب الشيعة الاثني عشرية ، والثاني تناول السهرودي، والثالـث تـناول المخلصين للعشق الإلهي من كبار الصوفيين الإيرانيين وخاصة : حيدر آمـلي، والرابع تناول مدرسة أصفهان الفكرية الفلسفية في القرن السابع عشر والتاسع عشر ومنها ملاصدرا الشيرازي ، مؤلف كتاب : الأسفار الأربعة - وميرداماد محمد بن باقر الإسترابادي ، وسعيد القمي ، وأحمد الأحسائي ..... الخ

ومـن مؤلفاتـه الهامة أيضاً كتاب : ابن سينا والحكاية ذات الرؤيا الذي يتناول الجانب الصوفي عند ابن سينا اعتماداً علي رسالة حي بن يقظان ورسالة الطير ، وكذلك كتاب : التخيل للخالق في تصوف ابن عربي .... الخ .

١١-شـارل بـيلات Pellat (١٩١٤ - توفي مؤخراً) الذي كان يجيد اللغة العربية ، ويكتب فيها عن الأدب والإسلام وقد اهتم كثيراً بدراسة الجاحظ ، فألف : الجاحظ في بغـداد وفي سامراء ، الجاحظ ومجتمع البصرة ، أصالة الجاحظ ، وحقق : كتاب التربيع والتدوير ، كما حقق عدة كتب منها : ديوان ابن شهيد الأندلسي وعني بتنقيح وتصحيح

الفهارس العامة لكتاب : مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (٧ أجزاء) ، وما زالت كتبه عن الجاحظ مرجعاً للباحثين .

ولأن قائمة المستشرقين الذين أغنوا مكتبتنا العربية والإسلامية والفلسفية المتنوعة ، قد تكون كبيرة ، ولا يتسع المجال لذكرهم جميعاً بصورة مفصلة ، فإننا نقول بإيجاز : إن مؤلفات وأبحاث غير من ذكرنا آنفاً مثل :إدوارد جبسون (١٧٣٧- ١٧٩٤) وسايمون أوكلي (١٧٠٨- ١٧١٨) وألكسي جوارفسكي وجاك بيرك وهنري لووست ومكسيم رودنسون وروجيه آرنالدز ودومينيك سورديل وأندرا ميكال وأدريان رولاند وتوماس آرنولد وفلهلم ألفرت وهلموت ريتر ولوثروب ستودارد ويوسف فان اس ..... الخ ، أسهمت علي الرغم مما في بعضها من هنات ومآخذ ، في فهم أفضل للإسلام وتراثه وحضارته وتاريخه ، إلي حد أن المستشرق الفرنسي آندره ميكال الأستاذ في الكوليج دي فرانس نال منذ سنوات قليلة جائزة الملك فيصل العالمية بسبب كتاباته الموضوعية عن الحضارة الإسلامية ، وقلة قليلة جداً من الباحثين العرب والمسلمين الذي لا يلجأون في أبحاثهم إلي مؤلفاتهم ولا يزينون هوامشها أو متونها بمراجعهم .

ولشدة إعجاب بعض هؤلاء المستشرقين بديننا وتاريخنا وتراثنا الفكري والأدبي والعلمي والفلسفي ، فإن المستشرق الفرنسي المعاصر روجيه أرنالدز الذي تتلمذنا عليه في بداية السبعينيات من القرن الماضي ، دعا منذ عقدين من الزمن المفكرين العرب إلي الكف عن تبني الأفكار والفلسفات الغربية الملائمة لمجتمعاتها ، والعودة إلي تراثهم الغني بالعلم والدين والفلسفة والتصوف، لإبداع فلسفة عربية خاصة بهم تضيف غلي الفكر الفلسفي العالمي ملامح خاصة ومميزة ، " ما آخذه علي الفلاسفة العرب المعاصرين ، أنهم تأثروا كثيراً بالفكر غير العربي ، إنهم يترجمون كثيراً ، وهذه ظاهرة لافتة ومهمة .. لكن غالباً ما تشكل هذه الترجمات لهؤلاء المفكرين المادة الجاهزة التي يعتمدونها لبناء فكرهم الخاص ، وآمل أن يؤسس الفلاسفة العرب فلسفة عربية خالصة ... انطلاقاً من تراثهم وتقاليدهم ، خاصة أن لديهم تراثاً غنياً دينياً وصوفياً وفكرياً ، وأعني بالطبع : الفلاسفة المسلمين. إذاً، يجب أن ينطلقوا من هذا التراث الرائع ليبحثوا علي ضوئه في القضايا المطروحة الآن، فيضيفوا إلي تطور الفكر الفلسفي ملامح خاصة ومميزة " [٨]. كما أن المستشرق الفرنسي، مكسيم رودنسون (١٩١٥- ت/ مؤخراً). يقول في دراسة له بعنوان: الصورة الغربية والدراسات الإسلامية: "في عام ١١٨٠ اكتملت (ترجمة) المجموعة الأولى من مؤلفات ابن سينا الفلسفية

وأخذت تروج في أوربا.وكان تأثيرها بالغاً. وتبعها ترجمات لفلاسفة آخرين بتلاحق سريع. وهكذا أخـذت تتشـكل في أذهان المفكرين الغربيين صورة أخرى للعالم الإسلامي بوصفه مهداً لفلاسفة عظام ... بل لقد جاء وقت كان لفظ "الفيلسوف" يعني فعلياً "المسلم" كما هو الحال بالنسبة إلى أبيلارد Abelard الذي توفي عام ١١٤٢ ... وخلال عدة قرون نجد أن ابن سينا وابن ارشد والغـزالي في لفلسفة، وابن سينا والرازي في الطب، ومؤلفين آخرين.. نجد هؤلاء يقلدون وتعاد طـباعة أعمـالهم ويعلق عليها وتدرس، وهكذا انتشرت الحقائق ... التي ألفها كتاب من أمثال فولـتير المعجـب بالحضـارة الإسلامية ... وإدوارد جيبون (١٧٣٧ – ١٧٩٤) الذي وضعت تقديراته العالم الإسلامي في مكان رفيع في التاريخ الثقافي والفكري للإنسانية.[٩]

كذلك يقول المستشرق الروسي أليكس جوارفسكي في كتابه : الإسلام والمسيحية: من التـنافس والتصادم إلى آفاق الحوار والتفاهم: "في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ... أصبح فيهما علماء المسلمين وفلاسفتهم أساتذة ومعلمين بالنسبة لمسيحي أوربا، فكان لهم نفوذهم القوي وهيبتهم العظيمة وتأثيرهم الذي لا يضاهى، ووسعت الترجمات من العربية إلى اللاتينية آفاق المعـرفة الأوربـية للفكر العلمي – الفلسفي – القديم ... كان تأثير الإسلام في أوربا في القرون الوسـطى شاملاً ميادين كثيرة ومهيمناً على جوانب متعددة. ويمكن القول إن هذا التأثير عمَّ – بدرجـة كـبيرة أو صـغيرة – مستويات الحياة الأوربية جميعاً ... بما في ذلك النواحي المعيشية والـتجارية والاقتصـادية والتقنية والسياسية والآداب والعلوم والفلسفة والدين ... والحقيقة أن الإسـلام لم يعـط أوروبـا معارف جديدة وحسب، بل أثر جوهرها في طبيعة العمليات الثقافية وتطورها وساعد في كثير من الحالات على تشكل الوعي الذاتي الأوروبي..."[١٠].

ويـبقي أخيراً أن نشير إلي أن ثمة مستشرقين فهموا الإسلام حق الفهم ، وأعجبوا به ، فاتخذوه ديناً لهم وألفوا فيه ومن هؤلاء نذكر : المستشرق الفرنسي الفونس إتين دينيه (١٨٦١ –١٩٢٩ م) الـذي أعلن اعتناقه الدين الإسلامي في الجامع الجديد بمدينة الجزائر سنة ١٩٢٧ م وتسمي باسم : ناصر الدين دينيه ، ودُفن في بلدة بوسعادة بالجزائر بناءً علي وصيته التي جاء فيها: أنـه لم يسـلم لمطمع أو مغنم ، وإنما لقناعته التامة بالإسلام ومبادئه ، ومن مؤلفاته كتاب : أشعة خاصـة بنور الإسلام ، الذي يرد فيه علي أباطيل وافتراءات المستشرقين أمثال : ديفيد صموئيل مرجليوث ، والأب هنري لامنس وغيرهما ، الذين يرون أن الإسلام لم يأت بشيء جديد عما سبقه

من ديانات وفلسفات ، وكتاب : الشرق كما يراه الغرب الذي يتحدث فيه عن الصورة المشوهة التي في أذهان المستشرقين الغربيين عن الشرق وأهله و : السيرة النبوية التي يروي فيها سيرة الرسول ﷺ اعتماداً علي ما جاء في القرآن الكريم ، والأخبار الصحيحة التي جاءت في سيرة ابن هشام ، وطبقات ابن سعد ، وكتب الصحاح ، وتاريخ الطبري ، و: محمد رسول الله (بالاشتراك مع سليمان ابن إبراهيم) وهو كتاب قيم جداً ، يدلل علي فهمه العميق للإسلام ، ويرد فيه بدقة علي تجني وافتراءات المستشرقين علي الإسلام ورسوله .

كذلك نذكر المستشرق الفرنسي رونيه جينون (١٨٨٦ – ١٩٥١ م) الذي اعتنق الدين الإسلامي وتسمي باسم : الشيخ عبد الواحد يحيي ، وعني بالدراسات الإسلامية والصوفية؛ وكان معجباً بالحضارة الإسلامية ، وقد قضي العقدين الأخيرين من حياته في القاهرة ومات فيها سنة ١٩٥١ م ، ومن مؤلفاته : أزمة العالم الحديث و: الشرق والغرب.

ونذكر أيضاً المستشرق الفرنسي دنيس غريل الذي اعتنق الإسلام واتخذ لنفسه اسم : محمد ابن عبد الله وأقام في المدينة المنورة مدة سنتين، وهو حالياً يدّرس في جامعة باريس السوربون.

كما نذكر المستشرق النمساوي فيس بولد فايس الذي اعتنق الإسلام سنة ١٩٢٦ في حيدر آباد ، وكان معجباً بمبادئ الإسلام وتاريخه والحضارة الإسلامية ، وله مؤلف مشهور بعنوان: الإسلام علي مفترق الطرق ، وقد جاء فيه أن تأخر المسلمين واستسلامهم إلي واقعهم المرير ، واستغراقهم في سبات عميق ، عائد إلي ابتعادهم عن جوهر الإسلام ومبادئه وتعاليمه ، والإسلام موجوداً فيهم جسداً بلا روح ، وعندما تعود الروح إلي الجسد تدب الحياة في عقولهم ونفوسهم وقلوبهم من جديد ، إن علي المسلمين أن يستيقظوا من نومهم وتكاسلهم وتواكلهم ويعودوا إلي دينهم الصحيح لكي يستعيدوا ماضيهم المجيد ، وهم إذا فعلوا ذلك فإنهم يتوحدون كما توحدوا منذ أربعة عشر قرناً ويصبحون قوة عظيمة في كل شيء ويصبح حالهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكي منه عضو تداعي له سائر الأعضاء بالسهر والحمّي ، إن الإسلام ليس ديناً لأمة دون غيرها ولا لزمن دون زمن ، ولا لمكان دون آخر ، بل هو دين يصلح لكل الأمم ولكل الأقوام ولكل مكان وزمان وحال ، والعرب والمسلمون ليسوا بحاجة غلي تبني ثقافة الغرب وفكره وفلسفته وحضارته لكي يصبحوا أصحاب ثقافة وفكر وفلسفة وحضارة ، فهم كانوا كذلك قبل الغرب ويمكنهم أن يعودوا ثانية علي ما كانوا عليه إذا ما شاءوا ذلك ، وأوربا اليوم مدينة بنهضتها من

ظـــلام القـــرون الوســـطي الدامس إلي فلسفتهم وحضارتهم ، ومن مؤلفاته أيضاً : أصول الفقه الإسلامي ، الطريق غلي مكة ، مبادئ الدولة والحكومة في الإسلام .

وهكـــذا فالمستشـــرقون يتوزعون بين فئات ثلاث : فئة منهم نظروا إلي الإسلام وتراث المسلمين من خلال مرآة الحقد والعداء ، فزعموا أن الإسلام والفكر الإسلامي علي اختلافه ذوو أصول يهودية ومسيحية ورومانية ويونانية وبوذية وفارسية ... الخ ، وأن الإسلام في بنيته : نصاً ، ونشـــأة ، ومسيرة ، يقوم علي العنف والسيف ، وفئة أخري لم تخف عقائدها ولا غاياتها ، ولكنها قدمـــت صورة حقيقية عن الإسلام وفكره وفلسفته وعلومه وحضاراته .... الخ ، علي الرغم مما شاب تلك الصورة أحياناً من افتراءات وتشويه ، وفئة ثالثة أُعجبت بالإسلام وفلسفته وحضارته ، وردت أحياناً علي بعض المفترين عليه ، وبعض المستشرقين من هذه الفئة اعتنق الإسلام ديناً وألف الكتب رداً علي المعادين له .

مرجعية مقتضبة

(١) بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة المستشرقين ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٨٤ م .

(٢) بـــدوي ، عبد الرحمن ، التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية – دراسات لكبار المستشرقين – ط٣ ، القاهرة ، دار النهضة العربية ١٩٦٥ م .

(٣) بدوي ، عبد الرحمن ، تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتي نهاية القرن الثاني ، الكويت ، وكالة المطبوعات ١٩٧٨ م .

(٤) بدوي، عبد الرحمن، شخصيات قلقة في الإسلام ط٣، الكويت، وكالة المطبوعات ١٩٧٨ م .

(٥) بدوي ، عبد الرحمن ، دفاع عن القرآن ضد منتقديه ، بيروت ، الدار العالمية ، (لا .ت) .

(٦) دينيه ، إتين ، إبراهيم ، سليمان ، محمد رسول الله ، دار المعارف بمصر ، (لا . ت)

(٧) ديوان الحلاج ، إعداد عبده وازن ، بيروت ، دار الجديد ، ١٩٩٨ م .

(٨) روزنتال ، فرانكز ، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي، بيروت، دار الثقافة ١٩٨٠م .

(٩) ستودارد ، لوثروب ، حاضر العالم الإسلامي ، بيروت ، دار الفكر ١٩٧٣ م .

(١٠) سعيد ، إدوارد ، الاستشراق ... ، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٩٥ م.

(١١) الســـباعي ، مصـــطفي ، الاستشـــراق والمستشرقون : ما لهم وما عليهم ، بيروت ، المكتب الإسلامي ١٩٧٩ م .

(١٢) شاخت ، جوزف ، تراث الإسلام – القسم الأول – عالم المعرفة ، الكويت ، آب ١٩٧٨ م

(١٣) العقيقي ، نجيب ، المستشرقون (ثلاثة أجزاء) ، دار المعارف بمصر ١٩٦٥م

(١٤) ليو بولد فايس ، الإسلام علي مفترق الطرق ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٤٦ م .

(١٥) المقداد ، فؤاد ، الإسلام وشبهات المستشرقين ، بيروت، المجمع العالمي لأهل البيت، (لا. ت)

(١٦) منشـــورات كلية الدعوة الإسلامية ، من قضايا الفكر الإسلامي كما يرها بعض المستشرقين ، طرابلس الغرب (لا . ت)

(١٧) مجموعة من الباحثين ، الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ترجمة وإعداد هشام صالح، بيروت ، دار الساقي ١٩٩٤ م .

(١٨) النشار ، علي سامي ، نشاة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج ٣ (الزهد والتصوف)، القاهرة ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩ م .

(١٩) هونكـــة ، زيغـــريد ، شمـــس العرب تسطع علي الغرب ، ط٣ ، بيروت ، المكتب التجاري ١٩٧٩ م .

(٢٠) واط ، مونـــتغمري ، الفكر السياسي الإسلامي " المفاهيم الأساسية " ، بيروت ، دار الحداثة ، ١٩٨١ م .

(٢١) واط ، مونـــتغمري ، أثـــر الحضارة العربية الإسلامية علي أوربا ، دمشق ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ١٩٨١ م .

الهوامش:

(١) انظر : مكسيم رودنسون ، الفصل الأول من كتاب : تراث الإسلام – القسم الأول ، عالم المعرفة، آب ١٩٧٨م ، ص ٣٤، ٣٥ و: فرانتز روزنتال،مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي،ص ١٤،١٧

(٢) انظـــر عـــلي ســـامي النشار ، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج٣ ، دار المعرفة ، مصر ١٩٩٩ ، ص ٢٥ . و: ديوان الحلاج ، دار الجديد ، بيروت ١٩٩٨ .

(٣) انظـــر : عـــبد الـــرحمن بدوي ، تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتي نهاية القرن الثاني ، وكالة المطبوعات ، الكويت . ١٩٧٨ . ص ٣٣ ، ٣٥ .

(٤) ط٣ ، دار المعارف ، بمصر ص ٤٢

(٥) ص ٥٨ ، (نقلاً عن كتاب : محمد رسول الله ، لإتين دينية ، ص ٥٤)

(٦) انظر عبد الرحمن بدوي ، دفاع عن القرآن ص ٦٥ – ٧١

(٧) تأسست دار المعارف الإسلامية في هولندا مع بدايات القرن الماضي ، وكان المشرف عليها عند تأسيسها : أفنسك وقد صدر الجزء الأول منها ١٩١٣ م

(٨) جريدة النهار البيروتية ، تاريخ ٦ /٤/١٩٨٥ م (مقابلة)

(٩) عالم المعرفة، تراث الإسلام، القسم الأول، ١٩٧٨م، ص ٤٠ – ٤١، ٥٢، ٦٧– ٦٨.

(١٠) عالم المعرفة عدد ٢١٥، ترجمة: خلف محمد الجراد، ١٩٩٦م، ص ٢٨، ٣٣، ٢٢٢.